والمنتديات ومنابر الفكر والثقافة في العالم كثيراً، فوظّفت كلّ أجهزة الإعلام الغربي لخدمتها وخدمة قضاياها المصيرية. وكانت أمام العرب مثلما كان لإسرائيل فرص واسعة لصنع آلية إعلامية وثقافية تردّ كيد الأعداء وتقيم جسوراً بين الغرب والشرق للحوار والتفاهم وتبادل المصالح. ولكن الهزيمة والخلاف والإحباط التي دخل فيها العرب مكرهين أو راضين أصابتهم في نفسياتهم وجعلتهم تابعين قانعين بسياسة الغرب. وهذا ما أودى بهم إلى حضيض الفشل، فضعفت إرادتهم وتمزّقت وحدتهم وتوالت عليهم الضربات وفُرِضَت عليهم الحلول في كل قضاياهم المصيرية.. وأصبحت إسرائيل المحمية من جانب الدول الغربية هي صاحبة الشأن والكلمة الأخيرة. فبعد أن حققت انتصاراتها في الحرب والسلام أرادت استثمار ذلك في سلام دائم، وسوق مفتوحة، وتطبيع ثقافي يسير في كل جوانب الحياة.

وإذا أخذنا في الاعتبار التطبيع الثقافي كخطوة عملية في مسيرة السلام فهل بالإمكان أن يتم ذلك بين ثقافة عربية وواقع عربي من جهة وثقافة إسرائيلية وواقع إسرائيلي من جهة ثانية؟ وإذا أخذنا في الاعتبار تاريخ ذلك الصراع العربي الإسرائيلي، وهو الذي تشكّل فيه الثقافة اليهودية القائمةُ على العنصرية ركاماً من المتناقضات وتقوم أساساً على عداوة العرب والمسلمين، فهل يكون هنالك تعايش سلميّ؟

لقد قامت إسرائيل على اضطهاد الشعوب العربية والإسلامية وبنت دولتها على أرض مغتصبة من أمة لا تعترف بالكيان الإسرائيلي. وعلى هذا الواقع المتناقض تنعكس ثقافة اليهود عبر التاريخ الطويل، وهي تشكّل الواقع الآن في مناهج التربية والتعليم لناشئة اليهود وفي وسائل الإعلام اليهودية. وتلك هي النظرة الموغلة في الحقد التي تشكّل العقلية الصهيونية بثقافتها في كل مكان، وتعمّقُ الخلافَ بين العرب حتى في جغرافية الأرض إذ يتعلم اليهوديّ خطوطَ خارطة جديدة قديمة لأرض اليهود ـ الحلم تمتد في بقاع شاسعة من أرض العرب.

وقد استطاع اليهود التأثير على نظرة الغربيين بأحلامهم في الأرض.. وبأنهم يعيشون في جزيرة مخيفة يحيط بها أعداء اليهود وأعداء السلام من وحوش العرب. وصوروا ما في داخلهم من حقد وعنصرية على أنه حقد عربي تاريخي ضد اليهود. واستغلوا كل إمكانات الغرب في العداء المستحكم ضد الأمة العربية. واعتبر الغربُ إسرائيلَ، بما تدّعيه من حرية وديمقراطية وتقدم علمي، وجهَ الثقافة الغربية في المنطقة والداعيةَ للسلام والحوار مع العرب. وصوَّر الغربُ العربَ أهل حرب ونزاع مستمر.

وإذا كان ثمة حوار ممكن بين الغرب والشرق فلماذا لا يكون مباشراً وحول القضايا التي تهمّ كل الأطراف، دون أن يكون هدف الحوار تحقيق أمن واستقرار لإسرائيل والحفاظ على مصالحها المغتصبة من العرب علماً أن إسرائيل لا تؤمن بقرارات الأمم المتحدة وتظل على تشدّدها وإرهابها دون أن يصدر بيان واحد من الدول الغربية يدين تصرّفاتها ويضعها في صف الدول الداعية والراعية للإرهاب... بينما تحفل قائمة الأمم المتحدة بأسماء الدول العربية التي ترعى «الإرهاب»، ولا يكف الإعلامُ الغربي عن وصف كل سياسة معادية لإسرائيل بأنها إرهابية ومتشدّدة، ولا يشطب هذا الإعلام اسمَ الدولة المتّهمة برعاية الإرهاب من قائمة الأمم المتحدة إلا عندما تصالح إسرائيل وتعترف بوجودها. فإذا اقتضت السياسةُ الاعترافَ بإسرائيل والتطبيع مع الكيان «الصهيوني»، وعملت منظمة التحرير على شطب كل البنود المعادية لإسرائيل من مواثيقها وعهودها، فهل تستطيع «المنظمة» أو غيرها شطبَ النظرة العربية الشعبية من صدور العرب والمسلمين وقناعتهم بأن إسرائيل ليست ابناً شرعياً في المنطقة العربية وأنها [أي إسرائيل] ليست إلا عصاباتٍ من الشّتات محكومة بالتشرّد وهي ـ بما تحسّ به من ركام تاريخ مظلم ومستقبل يهدده الموت والفناء ـ تتصرف الآن بشعور المضطهد الخائف رغم ما يحيطها من جدار الحماية الغربية وما توفره لها الدول العربية من سلام، فلا تضع وزناً لحقوق الإنسان وكرامته في الحرية والاستقلال؟ ومهما حاولت إسرائيل وحاول الغرب إبراز الوجه الحضاري المسالم لليهود فإن الخلاف بين ثقافة العرب وثقافة إسرائيل وبين واقعها المعيش وبين الواقع العربي لا يسمح أن يكون بينهما تقارب أو تطبيع ولو على السطح كما هو واقع اليوم.

ستظل المعركة دائرة.. والصراع قائماً.. ودور الثقافة أكبر في بلورة الفكر العربي، وفي الالتزام بالحق والإيمان، وفي تحريك أفكار وطرح رؤى كما يودّ أدينا أدونيس. وأرجو أن أطالع ما سيكتبه عن قضايانا الثقافية التي تثيرها مسألة السلام مع إسرائيل.. وقد كانت كلمة الدكتور سهيل ادريس الرافضة ذات أثر كبير وبارقةَ أملٍ في مسيرة الثقافة العربية التي تشوبها شوائبُ التطبيع. وستظل ثقافتنا، بوجهها الحضاري المضيء، هاديةً للأجيال القادمة، فلا تقبل التطبيع ولا تخضع للذوبان في أية ثقافة أخرى لما للثقافة العربية من فضل على كل الثقافات الإنسانية العريقة بمفاهيمها ولغتها الشاعرة والمتفردة.

عمر محمد الحاج (عمان)

قبل أن أغيّر رأيي

على امتداد رسائل ثلاث أصرّ د. شاكر الحاج مخلف على تأنيبي... إلى أن ضاق ذرعي ووجّهتُ له رسالةً باسم الآنسة شاكر الحاج مخلف. فكان ردّه الطريف التالي:

الأخ العزيز سماح المحترم.

تحية اعتزاز وتقدير

حملتْ رسالتك لي نكتةً حقيقية هي بالتأكيد أقوى من طرائف جحا وبرنارد شو وعزيز نسين. والحمد لله أنني لم أغازلْك في رسائلي السابقة.. ولكن لي العذر، فقد أوحتْ لي جميعُ الأحداث والتفاصيل بأنك الأستاذة سماح!! فهل تريد أن تعرف كيف حصل ذلك؟ كنت ذات يوم أتجاذبُ الحديث مع أحد الأصدقاء الأدباء في مقر وزارة الثقافة في الأردن وسألته عن سماح إدريس فأجاب بأنها ابنة سهيل إدريس!! وكانت هذه المعلومة كافية لتضليلي. كذلك شاهدتُ في بيت أحد الأصدقاء فيلماً عربياً هزيلاً بطلتُه تدعى سماح أنور، فأيقنتُ أنني في الاتجاه الصحيح، ولم أتوقعْ أن يكون سماح رجلاً وأديباً رقيقاً (...)، وهذه هي بحد ذاتها مفاجأة كبيرة وثمينة. ولقد مزقتُ رسائلَ الحبّ والغرام التي كنت أريد أن أرسلها إلى الأستاذة سماح لو تأخرتَ قليلاً في ذلك!.

عزيزي الفاضل لقد أعجبني أنّك منحتني العذر في رسالتك، ويا صديقي العزيز، (...) ستكون هذه المفارقة اللطيفة هي من أعمق الوشائج. وأتمنى أن تدوم العلاقةُ الودية الأخوية بيننا ونتواصل في المراسلة. كما أرجو الاهتمام بالمواضيع المسجونة لديكم قبل أن أغير رأيي وأعود عن اعتقادي الجديد!!..

أخوك الدكتور شاكر الحاج مخلف